إضاءات نقدية (مقالة محكمة) السنة الرابعة عشرة _ العدد الثالث والخمسون _ ربيع ١٤٠٣ش / آذار ٢٠٢٤م

صص ٦٩ ـ ٩٥

النقد السوسيولوجى لرواية "نوميديا" على ضوء نظرية لوسيان غولدمان في البنيوية التكوينية

وحید خیری*
حمید ولی زاده (الکاتب المسؤول)**
حسن إسماعیل زاده***
مهین حاجیزاده****

drhvalizadeh@yahoo.com

الملخص

يهتم نقد علم الاجتماع الأدبي بالعلاقة بين الأدب والمجتمع ويحلل انعكاس التغيرات الاجتماعية في بنية العمل الأدبي وتُعدُ نظرية البنيوية التكوينية إحدى المجموعات الفرعية في نقد علم الاجتماع الأدبي وهي تدرس العلاقة الثنائية بين الأدب وعلم الاجتماع في شكل البنية الدلالية للعمل الأدبي. ويُعدُ لوسيان غولدمان من أشهر منظري هذا المنهج النقدي الذي يساعد الباحثين في الأدب بنموذجه على تحليل انعكاس حالة المجتمع ورؤية العالم للطبقة الاجتماعية في بنية الرواية. نتيجة للتطورات الواسعة التي حدثت في العالم العربي في العقود الماضية تتمتع الروايات العربية المعاصرة ببنية دلالية. يسرد الكاتب المغربي طارق بكاري في رواية "نوميديا"، برؤية نقدية، العديد من التطورات السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية التي شهدها المغرب خلال العقود الماضية. يحاول البحث الحالي إظهار انعكاس التطورات السياسية والاجتماعية التي شهدها المغرب في نص هذه الرواية من خلال الاعتماد على نظرية البنيوية التكوينية عند لوسيان غولدمان. وتشعر نتائج البحث إلى أن نص رواية نوميديا صدى للوضع الاجتماعي للمغرب، والخنق والدكتاتورية المهيمن على البلاد، وتأثير الاستعمار، والأنشطة التدميرية للمتطرفين الدينيين والخرافة في السبعينيات إلى التسعينيات. وهو يعكس روية العالم لطبقة من المثقفين اليساريين والاشتراكيين المغاربة الذين يعتمدون على وعيهم الطبقي لتحقيق الحرية والذين يتمردون على نظام الاستبداد في المغرب، لكن الدكتاتورية الحاكمة بالتواطؤ مع الاستعمار الغربي والمتطرفين الدينيين تمنعهم من تحقيق هذا الوعي. الكلمات الدليلية: النقد السوسيولوجي، البنيوية التكوينية، لوسيان غولدمان، طارق بکاری، نو میدیا.

*. طالب الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة الشّهيد مدنى بأذربيجان، إيران
 **. أستاذ مساعد في قسم اللّغة العربيّة وآدابها بجامعة الشّهيد مدنى بأذربيجان، إيران

***. أستاذ مشارك في قسم اللّغة العربيّة وآدابها بجامعة الشّهيد مدنى بأذربيجان، إيران
 ****. أستاذة في قسم اللّغة العربيّة وآدابها بجامعة الشّهيد مدنى بأذربيجان، إيران
 تاريخ الاستلام: ١٤٤٦/٥٥/٥٠٣ق

المقدّمة

تر تبط الأعمال الأدبية ارتباطًا و ثيقًا ببيئتها الاجتماعية، و يأخذ موضوع كل منها شكلًا خاصًا حسب الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية. ولذلك فإن النص الأدبي هو انعكاس للعالم الحقيقي، حيث يمثّل المؤلف واقع المجتمع بمساعدة شخصيات الرواية، ويعبر أبعد من ذلك عن رؤيته للعالم ورؤية فئة اجتماعية كبيرة. فإن نقد علم الاجتماع الأدبي ينتقد ويحلل دور عوامل خارج النص في بناء النص. ومن النظريات المهمة في مجال نقد علم الاجتماع الأدبي نظرية البنيوية التكوينية للوسيان غولدمان، والتي يتم فيها فحص العلاقة بين العمل الأدبي والمجتمع على شكل مقولات منها الطبقة الاجتماعية، الصراع الطبقي، رؤية العالم، الوعى الطبقي والتشييء والبطل الإشكالي. فإن نظرية البنيوية التكوينية «كانت بمثابة رد فعل ضد البنيوية الصرفة التي قللت من أهمية دور المؤلف والسياق التاريخي في الإنتاج الأدبي.» (مكاريك، ١٣٨٤ش: ٣٥٧) يتم تحليل العلاقة بين بنية العمل الأدبي والسياق الظرفي للمجتمع والظروف المعيشية للمشاركين فيه. في ظل الظروف والتطورات السياسية والاجتماعية والثقافية الواسعة التي يشهدها العالم العربي، تُعدُ الموضوعات الاجتماعية من أهم الموضوعات التي يبدع حولها الأدباء العرب أعمالهم الروائية. طارق بكاري، كاتب مغربي شاب، يُعدُ من الروائيين الذين غلبت على أعمالهـم الصبغة الواقعية والاجتماعية. بكاري يتناول في روايته "نوميديا" التي وصلت إلى القائمة القصرة لجائزة البوكر العالمية العربية عام ٢٠١٦، قضايا مثل الاستعمار الناعم، والمواجهة بين الثقافة العربية الشرقية والثقافة الأوروبية الغربية، والاغتراب الثقافي، والتفكير التقليدي والخرافة والتطرف الديني وآثاره المدمرة على المجتمع المغربي. يحاول البحث الحالى دراسة سوسيولوجية لرواية نوميديا من خلال الاعتماد على نظرية غولدمان وتفسير انعكاس التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية التي شهدها المجتمع المغربي في العقود السابقة في بنية هذه الرواية وتفسيرها.

أسئلة البحث

١. انطلاقاً من نظرية غولدمان كيف فسر طارق بكارى العلاقة بين البني الاجتماعية

- والأدبية في رواية "نوميديا"؟
- ٢. ما هي رؤية العالم الخفية في نص رواية نوميديا؟
- ٣. من خلال تأليف رواية "نوميديا"، ما هي حقائق المجتمع العربي والمغربي التي قدمها المؤلف؟

فرضيات البحث

- ا. يبدو أن بنية رواية نوميديا تشبه إلى حد كبير ببنية المجتمع المغربي، وقد قام المؤلف بتمثيل العديد من الأحداث في تاريخ المغرب المعاصر على شكل شخصيات في هذه الرواية.
- 7. نفترض أن بــكارى يصور من خلال تصرفات مراد وشــخصيات أخرى فى الرواية، رؤية العالم للطبقة الأكاديمية والفكرية الماركســية فى المغرب، والتى ينتمى إليها أيضًا.
- ٣. يمكن القول، فإن بكارى تعتبر المغرب لا تزال تابعة للغرب والاستعمار رغم استقلالها، ويعتبر الاستبداد وخيانة العوامل الداخلية عائقا أمام تحقيق الوعى الوطني.

أهمية البحث

بالنظر إلى الصحوة العربية الإسلامية التى شهدتها البلاد العربية فى العقدين الأخيرين، فإن دراسة رواية نوميديا استناداً إلى نظرية غولدمان فى البنيوية التكوينية يكن أن تفتح نافذة على الوضع السياسي والاجتماعي والأيديولوجي والاقتصادى للعالم العربي وخاصة المغرب، وتكشف الكثير من الحقائق.

خلفية البحث

ومن أهم الأبحاث التي تم إجراؤها عن أعمال طارق بكارى هي: ١-أطروحة «تحليل السلوك المتبادل لشخصيات رواية "القاتل الأشقر" في ضوء نظرية الشخصية لإريك برن» جامعة رازى كرمانشاه، إعداد: إيمان قنبرى، ١٤٠٠ش، استنتج الكاتب

أن شخصيات رواية "القاتل الأشقر" في أغلب الأحيان، يتأثرن من البُعد الأبوى ولهذا السبب فإنهم يتصرفون مع بعضهم البعض على أساس عاطفي والقلق والخوف. ٢- مقالة «الهوية المهمشة في رواية "نوميديا" للروائي طارق بكارى» عادل حموشي، تمثلات،٢٠٢٢م، المجلد٦، العدد٢، بحثت في أزمة هوية «مراد» الشخصية الرئيسية في رواية نوميديا، وبينت تأثير وجهات النظر التقليدية في رفض المجهولين مثل مراد. ٣-مقالة «استطيقا الامتصاص والتحويل في الرواية العربية رواية "القاتل الأشقر" لطارق بكاري أنموذجاً»، محمد الساهل و طه حسين، جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ٢٠١٩م، العدد٥٦، يعتقد الكاتبان أن هـذه الرواية تتفاعل مع قصص ألف ليلة وليلة، واستخدم المؤلف الأسلوب السردي المستخدم في ألف ليلة وليلة وأدخل تعديلات عليه لتصوير آلام الإنسان المعاصر ومثله العليا. ٤- مقالة «الهاجس الاغترابي في رواية "مرايا الجنرال" طارق بكاري»، عزيز بويغف، جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ٢٠١٩م، العدد٥٥، قد بحثت انعكاس الاغتراب الوجودي والمكاني في الأبعاد النفسية لشخصيات هذه الرواية. وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن مرايا الجنرال هي رواية تستكشف حقيقة الإنسان وعلاقته بجوهره ونفسه الداخلية. لقد تناولت الأبحاث السابقة حول أعمال بكاري في معظمها قضايا مثل التناص والنقد النفسي وأزمة هوية الشخصية الرئيسية في الرواية وتغريب الشخصيات وتأثير البيئة في خلق شخصيات مريضة وغريبة وبدرجة أقل قد اهتمت بالجوانب والقضايا الاجتماعية مثل الاستعمار وصراع التقاليد والحداثة وطبقة المرأة. إلا أن هذا البحث يعد أول بحث مستقل يتناول النقد السوسيولوجي لرواية نوميديا وفق نظرية البنيوية التكوينية، ويحلل العلاقة بين البنية الدلالية لهذه الرواية وبنية المجتمع المغربي.

معالجة الموضوع

النقد السوسيولوجى للعمل الأدبى له أصنافه، وتعتبر نظرية لوسيان غولدمان فى البنيوية التكوينية من أشهر النظريات وأكثرها دقة، وهى فى حد ذاتها مقسمة إلى أجزاء.

نظرية لوسيان غولدمان في البنيوية التكوينية

قام لوسيان غولدمان بتوسيع إطار البنيوية التكوينية من خلال تقديم بعض نظرياته و قد تأثر في نظريته هذه بالأفكار الماركسية ويستخدمها في النقد الاجتماعي للأعمال الأدبية وخاصة الرواية. «البنيوية التكوينية هي نهج يركز على دراسة الظروف والعمليات الاجتماعية المتعلقة بإنشاء الأدب الماركسي والمستوحى من لوكاش ويتم من خلالها استخدام النص الأدبى كأداة للتحقيق السوسيولوجي لفحص الشخصية الاجتماعية التاريخية والدلالات الموضوعية للحياة العاطفية والفكرية للشخص المبدع.» (گلدمن، ١٣٧٧ش: ٢٠١) لذا فإن البنيوية توضح الطريق لبدء وإنشاء نظرية جماعية وموقف وأسلوب فكرى عبر التاريخ تحاول بنيوية غولدمان «إعادة القيمة والمصداقية للعمل، دون قطع علاقته بالمجتمع والتاريخ.» (غولدمان و الآخرون، ١٩٨٦م: ٧) ولذلك فإن كل عمل أدبي له خلفية تاريخية تتم فيها مراجعة القضايا التي حدثت في المراحل التاريخية وفي المجتمع ويمكن إعادة إنتاجها في المستقبل والمراحل اللاحقة. يعتبر غولدمان العمل الأدبي وصفًا للظروف المعيشية لطبقة من المجتمع. ويرى أن «المبدعين الحقيقيين للأعمال الثقافية هم فئات اجتماعية، وليس أفراداً.» (كلدمن، ١٣٨١ش: ١٣) يعني أن العمل الأدبي لا يعبر فقط عن مشاعر المؤلف الشخصية. فإن «كل عمل فني أصيل هو تعبير عن رؤية جماعية موحدة يكون المؤلف نفسه جزءا منها.» (راودراد، ١٣٩٤ش: ٩٨) فالكاتب، باعتباره عضواً في المجتمع الذي يعيش فيه، يعبر عن أفكار ومشـاعر أهله من خلال خلق نصه الأدبي. وبهذه الطريقة «يعطى الإنسان إجابة ذات معنى وفقاً للوضع القائم ويحاول إقامة توازن بين المؤلف والمجتمع.» (پاســـكادي، ١٣٧٦ش: ٥٦) يعرض المؤلف في عمله رؤية العالم العامة لفئة من المجتمع تتمتع بالتضامن الفكري وعادة ما يكون له توجه نقدى تجاه الخطاب الرسمي والحاكم.

تنقسم نظرية غولدمان إلى قسمين رئيسيين: الادراك والتفسير. عند الادراك، يتم تحليل خصائص العمل الهادف، ووصف العلاقة بين البنية الدلالية وبنية المجتمع. «يبدو الادراك كأسلوب عقلى يكمن قدر الإمكان في وصف البنية الدلالية؛ أي وصف العلاقات التي تكون البناء الدلالي، مع الالتزام بالنص، دون تجاوز حدوده.» (غولدمان،

والتي تتسبب في ظهور البنية الدلالية للعمل. تشمل هذه المكونة للعمل الأدبى، والتي تتسبب في ظهور البنية الدلالية للعمل. تشمل هذه المكوّنات الطبقة الاجتماعية، والصراع الطبقى، وروية العالم، والوعى الطبقى، والتشيو، والبطل الإشكالي. لكن في التفسير يتم بحث انعكاس ظروف المجتمع للعالم الواقعى في البنية الدلالية للرواية التي يمثل فيها المؤلف واقع المجتمع مستعينا بأحداث الرواية وتصرفات شخصياتها. «فإن التفسير؛ عبارة عن إدراج بنية دلالية في بنية أخرى أكبر، ليكون عنصرا مساهما في تكوينها، وبعبارة أخرى، يعنى توضيح البنية الذهنية للنص في ضوء العناصر الخارجية.» (شحيد، ١٩٨٢م: ٨٤) ففي التفسير يتم تحليل البنية الداخلية للنص مع بنيته الخارجية وعالم الواقع. ويرى غولدمان أن «الادراك والتفسير ليسا عمليتين ذهنيتين مختلفتين، بل هما يعد عملية واحدة تؤدى إلى بيانات مختلفة. فيكفي أن نجعل البنية الشاملة موضوعا للدراسة، بحيث يصبح ما كان تفسيراً فهماً، وبنفس الطريقة يجب أن يعود البحث التفسيري أيضا إلى بنية أوسع.» (62) (Godlman, 1970: 62) الادراك هو مقدمة لشرح نص العمل والباحث في الادراك، من خلال دراسة نص الرواية، يستخرج منه البنية الدلالية وفي التفسير ينتقد علاقة هذه البنية الدلالية ببنية المجتمع والأحداث النبية الدلالية وفي التفسير ينتقد علاقة هذه البنية الدلالية ببنية المجتمع والأحداث التنار يخية والسياسية.

ملخص الرواية

رواية "نوميديا" تروى قصة بطل الرواية "أوداد". هو طفل ضال تحت وصاية "إمحند" وبعد أن قضى طفولته بسبب عداوة زوجة "إمحند" وأمه، يتم إسناده إلى شخص يدعى "حسين" ويغير اسمه إلى "مراد". لكن بعد فترة وبسبب عداوة زوجة حسين وبناته يطرد من المنزل ويواجه مصاعب وينشر آرائه كثيرة حتى التقى بمصطفى وهو مناضل ثورى وماركسى وبمساعدته يذهب إلى فرنسا لمواصلة تعليمه الماركسية وهو مهدد من قبل الجماعات الإسلامية المتطرفة. يُقتل "مصطفى" خلال تفجير إرهابي، وتحمل من مراد "خولة" الفتاة التي كانت على علاقة غير مشروعة مع مراد قبل سفره إلى فرنسا، وتنتحر وتموت. تترك هذه الأحداث أثرها السلبي على مراد، فيصاب بالاكتئاب ويخضع

للعلاج تحت إشراف طبيب نفسى يدعى "بن هاشم"، الذى يأمره بالعودة إلى مسقط رأسمه فى قرية "إغرم". وبعد شراء فندق فى إغرم، يتعرف على "جوليا"، وهى فتاة فرنسية تبحث على ما يبدو عن ثقافة الدول الشرقية والعرب، لكنها فى الحقيقة كاتبة مشهورة تبحث عن شخصية عربية شرقية خائبة الأمل لخلق روايتها الجديدة. ويكون خلف ستار معرفتها براد، الدكتور بن هاشم الذى يعطى جوليا معلومات حياة مراد الشخصية مقابل رسوم. وهكذا تدخل جوليا حياة مراد وتقيم معه علاقة غير شرعية لتحقيق أهدافها وتخرج قصة حياته من فمه. بعد أن يكتشف مراد نوايا جوليا، يزداد تقلقه النفسى ويعانى من الهلوسة تحت الضغط النفسى الناجم عن موت خولة وتهديد الإرهابيين وخيانة جوليا. وفى جو سريالى، يلتقى بفتاة أسطورية وجميلة وخرساء يسميها مراد "نوميديا"، وهى ملكة مملكة أمازيغية القديمة. وينبهر بها مراد لدرجة أنه يراها أمام عينيه فى عالم النوم واليقظة. وفى نهاية الرواية وهو يبحث عن نوميديا فى يالها أعالم عينيه فى عالم النوم واليقظة. وفى نهاية الرواية وهو يبحث عن نوميديا فى أنفه حتى يموت.

تحليل رواية نوميديا على أساس نظرية غولدمان

يتم تحليل رواية نوميديا استناداً إلى مبادئ نظرية غولدمان البنيوية التكوينية على مستويين من الإدراك والتفسير، ويتم التعبير عن العلاقة بين بنية المجتمع المغربي والبنية الدلالية لهذه الرواية.

مستوى الإدراك

وينقسم مستوى الادراك إلى أقسام فرعية يتم فيها انتقاد الطبقة الاجتماعية، والصراع الطبقى، ورؤية العالم، والوعى الطبقى، والتشيؤ، والبطل الإشكالي. ولذلك، يتم أولاً فحص مكوّنات رواية نوميديا استناداً إلى نظرية غولدمان في باب الادراك.

الطبقة الاجتماعية

تتكون جميع المجتمعات الحديثة من المجموعات والوحدات الاجتماعية المترابطة حتماً. «إنّ الطبقة الاجتماعية تتكون من مجموعة أفراد يشغلون نفس المواقع في هيكل

العلاقات الاجتماعية للإنتاج، والعلاقات التي تنشأ في سياق التنظيم الاجتماعي للعلاقات الاقتصادية.» (العيسوي، ١٩٨٩م: ١ و للعلاقات الاقتصادية.» (العيسوي، ١٩٨٩م: ١ و ٢) التفاعلات بين الطبقات تحدد الثقافة الكلية للمجتمع وأسلوب إدارته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأيديولوجية.

فى رواية نوميديا هناك طبقات اجتماعية مختلفة، بعضها يتفاعل وبعضها يتعارض فى السياسة والثقافة والدين. إن الطبقة المثقفة ذات التوجهات اليسارية والثورية، والسياسيين والنظام الحاكم، والمتطرفين الدينيين، والطبقة الفقيرة المكوّنة من العمال والفلاحين والسذج تحت تأثير الثقافة التقليدية والخرافات، هي فئات اجتماعية مختلفة فى المغرب تتواجد فى الصراع أو التفاعل مع بعضها البعض. فى هذه الرواية، الطبقة الفكرية الماركسية فى مواجهة وصراع مع النظام الحاكم من جهة ومع المتطرفين الدينيين من جهة أخرى، كما أنها تتعرض لضغوط الثقافة التقليدية التى تحكم المجتمع الريفى المغربي. ويصوّر بكارى الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والأيديولوجي للمجتمع المغربي من خلال تصرفات شخصيات الرواية وعلاقة مراد والأيديولوجي للمجتمع المغربي من خلال تصرفات شخصيات الرواية وهن جوليا ونضال وخولة ونوميديا، وبهذا يعبر عن صوت مختلف الخطابات في هذا المجتمع.

الصراع الطبقى

يتكون كل مجتمع من طبقات اجتماعية مختلفة، وقد تهيمن عليها العلاقات العليا والدنيا. «ينشأ الصراع الطبقى عندما يتكون المجتمع من مجموعات منفصلة، تسعى كل منها إلى تحقيق مصالحها الخاصة. إن وجود مصالح منفصلة يؤدى إلى تعارض القدرات والإمكانيات التي تستفيد منها فئات معينة قبل غيرها.» (گيدنز، ١٣٩٠ش: ٣٣) تنمو بعض المجموعات وتؤثر على مجموعات أخرى بأفعالها، ويزداد التنافس بين المجموعات ويجاول بعضها القضاء على المجموعات الأخرى.

فى المجتمع المغربي الدكتاتوري، تعمل كل الفئات ضد الاتجاه الفكري الماركسي، وتعتبر الحكومة والمتطرفون الدينيون ألد أعداء هذا الاتجاه، الذين يهاجمون الجامعة

بوحشية، ويقمعون الاحتجاجات ويعتقلون ويقتلون الطلاب: «تذكّرتُ بأسف جامعة «ظهر المهراز» ومواجهتنا الدامية مع النظام و الظلام، كم كبرنا وكم ضعنا في دروب الحياة الأشدّ حلكة وتأزّماً!» (بكاري، ٢٠١٥م: ٢٢٩)

وتحاول الحكومة والمتطرفون كفريق مشترك تطوير دكتا توريتهم من خلال قمع احتجاجات الطلاب والطبقة المثقفة والواعية: «رأيتُ سيارات الشرطة تطاردنا من سفوح وسلان إلى فضاءات باب الفتوح، وتنشلنا واحداً واحداً مخلفين الساحة في يد القتلة الحقيقيّين، رأيتُهم بلحاهم المسبلة كالقردة يقتحمون حلكة الطرق السرى في ليل الجامعة.» (المصدر نفسه: ٢٧٣)

ويظهر هذا التحالف خوف أعداء الطبقة المثقفة الذين يرون مصالحهم فى الخطر، ورغم اختلافهم إلا أنهم يصبحون العدو المسترك للطبقة المثقفة. وهذا التضامن بين مختلف الطبقات الاجتماعية هو نتيجة لتضارب المصالح الذى نشأ بينها وبين الطبقة الناقدة بالمغرب. طبقة اجتماعية أخرى تتعارض مع معتقدات مراد الحداثية هى سكان إغرم التقليديون الخرافيون، الذين كانوا اعداء له منذ طفولته وخلقوا أساطير حول كونه، وعلى رأس هؤلاء الأعداء والدة أمحند وزوجته وفقيه القرية. ويقول عنه فقيه القرية: «صار لسان الشيخ وزبانيّته أحد من السيف، قال بأنّ الموت ابتلع روح العجوز لمّا فشلّ فى أخذ أوداد، وأنّ لعنته لن تكتفى بروح العجوز، بل ستسعى كحيّة حتى تبتلع القرية كلّها.» (المصدر نفسه: ٦٣)

نتيجة هذه الخرافات وتحت ضغوط سكان القرية، يعهد أمحند بمراد إلى حسين الذى يعيش فى المدينة، حيث يواجه أيضًا عداء زوجة حسين ويتجول فى الشوارع. لذلك، من خلال انتقاد أفكار الإغرميين المتخلفة، يعتبر بكارى الجهل والثقافة التقليدية سبب عدم تقدم المغرب، وأن التعصب الدموى والعنصرية يتسببان فى نبذ الفقراء مثل مراد من المجتمع ويلحق بهم العديد من الأضرار النفسية والاجتماعية.

رؤية العالم

إن رؤية العالم توضــح طريقة التفكير والإطار الفكــرى لمجموعة من الناس في

المجتمع. في التعريف العام، تعتبر رؤية العالم «نظام أفكار لمجموعة من الأشخاص الذين يعيشون في ظروف اقتصادية واجتماعية معينة.» (غازى الجابرى، ٢٠١١م: ١٣٧) هذه رؤية العالم ليس لها بعد فردى، بل هي فكر عام ناشئ عن الحكمة الجماعية. من وجهة نظر غولدمان، «ليست عبقرية مؤلف العمل هي التي تخلق العمل؛ بل البناء الذهني الطبقي هو الذي يخلق التأثير. أي أن الطبقة الاجتماعية لديها نوع من رؤية العالم التي تخلق العمل الأدبى.» (شميسا، ١٣٨٦ش: ٢٩٦) ولذلك فإن الرواية هي نتاج موقف شامل يعبر من خلاله المؤلف عن المشاعر الطبقية.

ويضع بكارى رواية نوميديا فى خدمة رؤية العالم للطبقة المثقفة فى المجتمع المغربى، ويعبر عن مُثلها ومعاناتها. مراد، بطل الرواية، ذو ميول ماركسية وهو تعرف من خلال مصطفى وخولة على أفكار الماركس وهذه الأفكار تطورت فيه منذ بداية أيام دراسته: «وفى السنة الثانية، بدأت أتغلغل داخلها وأميط اللثام من أوجاعها، وسحبتنى مأساتها إلى اليسار الجامعي. صحيح أننى كنت على أثم الجاهزية للالتحاق بهذا الفصيل، وذلك بحكم ما اطّلعت عليه فى مكتبة مصطفى، هذا الملاك الذى آوانى من وحشة الأزقة، كان أحد المناضلين السبعينيين الأشد تمسّكاً باليسار؛ ورغم أنه كان يتحاشى استمالتى لذهبه السياسى، إلّا أننى وجدت فى كتبه سلوة.» (بكارى، ٢٠١٥م: ٤٧)

الموضوع الرئيسي لهذه الرواية هو نقد التطرف الديني والآثار المدمرة للتقليدية والخرافة، ويظهر بكارى صراع فكرتين متعارضتين. فهو من ناحية يعبر عن رؤية العالم للطبقة المثقفة الماركسية في المجتمع، بمن فيهم مراد ومصطفى ونضال، ومن ناحية أخرى، يصف أفعال المتطرفين المدمرة: «كان ماضينا النضالي يصحو داخلي رويداً رويداً، تذكّرتُ بأسف جامعة «ظهر المراز» ومواجهتنا الدامية مع النظام والظلام، كم كبرنا وكم ضعنا في دروب الحياة الأشد حلكة وتأزّماً!» (المصدر نفسه: ٢٢٩)

مراد المتواجد في أوروب منذ فترة يكره الخرافات والتفكير التقليدي والقبلي ويعتبرها سبب تخلف الدول العربية: «قلتُ لبنهاشم، وأنا مستلق على أريكة عيادته:
-المدينة أختارتنا، والقبيلة والتفكير القبلي لايزالان داخلنا.» (المصدر نفسه: ١٤٥)
"المدينة" رمز لحضارة جديدة وعالم متقدم مليئ بالتقنيات الجديدة، و"القبيلة" هي

الدوغمائية والتقليدية العمياء التي تمنع التغيير الإيجابي في المجتمعات العربية. كلمات مراد هذه هي انعكاس رؤية العالم للطبقة الناقدة حول ضرورة التحديث ورفض بعض التقاليد الفاسدة التي لا تنسجم مع متطلبات العصر الحاضر.

يتناول بكارى في هذه الرواية قضية الاستعمار ومحاولة خلق التغريب بين المغاربة. جوليا، هي كناية عن العالم الغربي، الذي يقترب من مراد بهدف دراسة ثقافة الشرق، لكن في الحقيقة هدفها هو استغلال عواطفه لخلق شخصيته الروائية. جوليا هي رمز للثقافة الغربية والنظام الرأسمالي الذي يحول الناس من مجتمعات العالم الثالث إلى أشياء ويستخدمهم لمصالحه الخاصة: «تذكّرنا معاً أوّل ما قاد المودّة بيننا، فاندفعت ترددّ كلمة واحدة: الصدفة! ترى أيّة صدفة هذه التي تنتهي بملفّي النفسّي في حقيبتك؟ لاشكّ أنّها كانت تخطّط لكلّ شيء، وحتى (حبّها) الذي لا تنفكّ تصرّح به وبروعته وعظمته! لاشكّ أنّ هذا الحبّ زائف.» (المصدر نفسه: ١٩٥)

ويعبر بكارى فى كلمات مراد عن رؤية العالم والموقف النقدى للمثقفين المغاربة تجاه تأثير الاستعمار استغلاله من المجتمعات الثالثة. وهو ينتقد سذاجة المغاربة الذين يسهل خداعهم بسلوكيات الغربيين التى تبدو ودية، وهم الذين يمارسون السلطة على المغاربة والدول الأخرى من العالم الثالث باعتبارهم الطبقة العليا وينظرون إليهم كأداة.

الوعى الطبقى

ينقسم الوعى الطبقى نفسه إلى ثلاثة أجزاء أكثر تفصيلاً، أى الوعى الحقيقى، والوعى الممكن، والوعى الرائف. الوعى الحقيقى، ويسمى أيضًا الوعى الحالى، هو أدنى مستوى من الوعى الطبقى. «الوعى الحقيقى هو إدراك فئة من المجتمع لوضعها الحالى ووصف هــذا الوضع دون إجراء أى تغيير.» (لحمداني، ١٩٩٠م: ٦٩) وهذا الوعى هو معرفة الإنسان الأولية بمحيطه ولا يؤدى إلى تغييرات جذرية وهو تكرار أفكار الماضى.

وصل الناس في المجتمع المغربي إلى مستوى من الوعى بمجتمعهم ووضعه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، لكن هذا الوعى هو المعرفة الساكنة والحالية، أسسها الماضي، ولكن ومع مرور الوقت، تم نسيان الزمن ولم يؤد إلى تغييرات إيجابية: «كأن الحقائق

تنضج وتستوى لا تنتظر من أن تبحث عنها، بل تتقدّم هى نحوك، وقد يكون الأمر غير هذا تماماً، قد تكون الحقيقة سلسلة صدف تتعرّى الواحدة تلو الأخرى، لكن أيّاً كانت هذه القوّة التى تقتادنا نحو اكتشاف حقيقة ما، فإنّ أهمّيّتها سرعان ما تتبدّد، بل ويغيب السؤال بشأنها ما إن نكون حفاة أمام أمر اكتشفه أو نكتشف أنّنا كنّا مغدورين به، وأنّه كان يعيش معنا، وربّا فى دمنا دون أن نعى ذلك.» (بكارى، ٢٠١٥م: ١٧٠)

ولذلك فإن تراجع عواطف المغاربة ومشاعرهم الثورية والاستهتار وروتين حياتهم وغياب المطالب والاستحقاقات سيبقى وعيهم الطبقى نظريا فقط وفى الوقت الحاضر ولن يوفر أرضية لتغييرات مهمة فى هيكل الإدارة الكلية فى البلاد.

لكن الوعى الممكن يرتبط بالبصيرة، ويقول غولدمان في تعريفه: «أعلى مستوى من الوعى هو طبقة اجتماعية يكنها تكوين رؤية عالم منتظمة واجتماعية من أجل التعبير بها عن الآراء والأفكار الدينية والفلسفية والأدبية والفنية.» (غولدمان، ١٩٩٦م: ١١٦) لذا يعتمد الإنسان على فهمه العميق لحالة المجتمع وفهمه لضرورة التغيير والتحول في البنية المختلة في المجتمع لهدم هذه البنية. «هذا النوع من الوعى مرتبط بالمستقبل ويؤدى إلى التغيير.» (بحرى، ٢٠٠٥م: ٩٥)

كانت تركيز الحركة المثقفة المغربية الأكثر على الاحتجاجات السلمية ولم تتجه نحو الصراعات المسلحة للدفاع عن أهدافها ومُثُلها العليا. وقد ينتقد مراد هذا الموضوع، ويرى أن الطلاب يجب أن يلجأوا إلى الكفاح المسلح لإحداث تغييرات إيجابية «تُرى أكان يجدر بنا أن نتأبّط الكلاشينكوف بدل كُتبنا لنجد للحلم متسعاً في بلاد أضيق منه؟!» (بكاري، ٢٠١٥م: ٢٤٠)

وكأن بكارى يعبر عن موقفه النقدى من أسلوب سلوك الحراك الثورى مع عنف الحكومة والمتطرفين بكلمات مراد، ويعتبر أن التركيز على الشعارات بدلاً من الفعل عامل في إضعاف الثورة وتعزيز جبهة المعارضة.

الوعى الزائف يبعد الإنسان عن الطريق الصحيح وإدراك الوعى الممكن. «إن الوعى الكاذب ينبع من موقف خادع غير قادر على إدراك الواقع، ونظرته للمجتمع وأحواله الاقتصادية والاجتماعية محدودة وغامضة وغير مؤكدة. لذلك ينتبه الإنسان

إلى الأشياء التى تُلهيه عن الواقع؛ ونتيجة لذلك، يضطر إلى الهروب من الواقع والتوجه إلى أحلام كاذبة ومستحيلة، ولا يستطيع فهم العالم من حوله وحياته.» (جلالى و الآخرون، ١٠٢، شن ٢٠١) ولذلك فإن الوعى الزائف يبعد الإنسان عن الواقعية والفهم الدقيق لحالة المجتمع.

تسببت الدعاية السلبية التى استخدمتها الحكومة ضد الحركة المثقفة فى أن يصبح عامة الناس، من المتطرفين الدينيين إلى السوقيين وأصحاب المتاجر والبقالين وبائعى الخضار والباعة المتجولين، أعداء دمويين للجامعة والعلم والتفكير التحررى. لذا، فمن خلال خلق الرعب فى البيئة العلمية، تعمل الحكومة على تهميش الوعى المثالى: «رأيتُ الساحة الجامعيّة التى غطّتها دماء الطلبة قد استحالت إلى رصيف هامشي يكتظ بلحاهم، رأيتُ انزالاتهم فى تلك المرحلة، رأيتُ جزّارين وبقّالين وبائعى خضرة وبائعين متجولين غرباء عن الجسم الطلابي، يمشون كالديكة فى الساحة الجامعيّة التى كانت إلى الأمس القريب معقلاً للمجد والنضال، يتأبّطون سواطيرهم وسلاسلهم .. كم أسأووا إلى الجامعة!» (بكارى، ٢٠١٥م: ٢٧٠)

مثل هذه الأحداث المريرة تنشر روح اليأس بين الأكاديميين وتضعف تدفق الثورة والخطاب النقدى. إن النظام الاستبدادى الحاكم في المغرب، وخونة الداخل والمتطرفين من جهة، والاستعمار الغربي من جهة أخرى، يستخدمون كل أنواع الأدوات ضد الوعى المثالي للمغاربة. وبقمع الدعوة للحرية والإصلاح للمغاربة، فإنهم يضعفون ثقتهم بأنفسهم ويؤخرون تحقيق الوعى الممكن.

التشيؤ

التشيؤ هو مفهوم واسع يكتسب معانى مختلفة في الفن والاقتصاد والثقافة والمجتمع. ويعتبر غولدمان ذلك عبادة وثنية ونزعة متطرفة نحو القيم المادية، وهو ما يعنى أن «هيمنة العالم الرأسمالي على الناس هي بحيث يصبحون أشياء ويقتصرون على عالم سلبي، كما تتعرض العلاقات والمؤسسات الإنسانية لنفس الدمار وخسارة القيمة.» (گلدمن، ١٣٦٩ش: ٣٠٥) يشجع النظام الرأسمالي من خلال المنافسة بين الناس

وسيطرة الثقافة الاستهلاكية، أفراد المجتمع على استغلال لآخرين.

يبين بكارى أن الناس فى الدول العربية يتنافسون مع بعضهم البعض تحت تأثير دعاية الرأسمالية، وفى هذه الدورة، يحكم المال ونظام العملة على العلاقات بين المشاركين فى المجتمع ويشبعان على استغلال الآخرين. فإن الناس ومشاعرهم وأجسادهم وأفكارهم يصبحون أشياء ويعاملون كأنهم جماد. ومن أوضح مظاهر التشيؤ فى رواية تنوميديا تظهر في العلاقة بين جوليا ومراد. تدخل جوليا فى علاقة عاطفية مع مراد وتخرج قصة حياته من فمه، بمعرفة مرض مراد النفسى من خلال طبيبها النفسى وبهدف خلق شخصية روايتها الجديدة: «أمّا أنا، فإنّ غواية الكتابة عن هذا الفضاء الغامض ولأنّني كان إلى الأمس مستعمرة فرنسيّة هى السبب الذى دفعنى إلى المجىء إلى هنا. ولأنّني عبئت إلى المغرب بهدف لبحث عن مادة روائية، ولأنّ منافذى للناس كانت شبه معدومة، ذلك أن اللغة لا تسعفهم، فإنّني لم أجد أمامي سواء أبواب الأطبّاء النفسانيين... ولأنّني سبق وصرحتُ أنّ كلّ شيء قابل للبيع، فإنّني لم أجد صعوبة فى شراء ضمير أحدهم.» (بكارى، ٢٠١٥م: ٢٤٨-٢٤٩)

النظام الرأسمالي والقوة التي تتمتع بها الدول الاستعمارية تسمح لها باستخدام أشخاص من مجتمعات متخلفة كأشياء وانتهاك خصوصياتهم؛ وبنفس الطريقة، وبسبب نفوذ بلادها في المغرب، تستخدم جوليا جسد مراد وروحه بسهولة كموضوع وأداة لصلحتها الخاصة.

يرى بكارى أن الناس يصبحون عبيدا خالصين للمال والنظام الرأسمالى بسبب احتياجاتهم المادية؛ لأنهم يلجأون إلى المال لتلبية احتياجاتهم، ويصبح هذا النوع من الأشخاص سلعة تخضع لسيطرة المال والنظام الرأسمالي ويميل نحو الاستهلاك والقيم الكمية. وبكلمات مراد يظهر تشيؤ الإنسان المعاصر: «كم أنا الآن في حاجة إلى سيجارة ورشفة من زجاجة خمر... لا ...، بل أحتاج الآن أكثر إلى الأكل، أنا جائع. في النهاية جوع البطن قاس، وإن جعتُ صرتُ في حاجة إلى شدق خبز أسد به رمقي، وإذا أردتُ أن أحقّ ذلك لابد أن أعمل، الأمر الذي سيجعلني عرضة للاستغلال الذي لابد أن يمارسه مالكُ وسائل الإنتاج... إنّني بروليتاري في حاجة إلى ثورة من أجل

التحرر من ربقة الملاك...» (المصدر نفسه: ٣٦١-٣٦٢)

فى هـذه الدورة يكون كل من البائع والمشـترى عبدين للمـال ويخدمان النظام الرأسمالي، ويعترف مراد بهذه المشكلة ويقف فى مواجهتها بسبب التفكير الماركسي. إن كلمات مراد المناهضة للإمبريالية، هى انعكاس لأفكار الطبقة المثقفة الماركسية المغربية التى ترى طريق تقدم الدول العربية بعيدا عن أسس النظام الرأسمالي الذي يستغل من الناس لتقدم أهدافه.

البطل الإشكالي

البطل الإشكالي، والذي تمت ترجمته على أنه بطل إشكالي أو صانع المشاكل، هو أحد المفاهيم الرئيسية من وجهة نظر لوكاش وغولدمان. «يعتبر غولدمان أن بطل الرواية هو شخص إشكالي، في مجتمع تكون فيه القيم الاستهلاكية مثل السلع ورأس المال ذات أهمية أساسية، فهو يبحث عن القيم النوعية والأصيلة والحقيقية مثل الحرية والعدالة والحب، ولذلك فإن العزلة والوحدة والانطواء هي الملاذ الوحيد للشخص الإشكالي في المجتمع الحديث.» (گلدمن، ١٣٧٧ش: ٦٦) وبسبب سيطرة الوعي الزائف على الوعي المكن تواجه هذه الشخصية الفشل في أهدافها ومُثُلها العليا وتعاني من الإحباط.

مراد الشخصية الرئيسية في رواية "نوميديا"، بطل إشكالي يواجه الفشل في تحقيق أهدافه ومثله العليا بسبب العوامل البيئية وظروف المجتمع الخانق والنزوح والتشرد والفقر، ومواجهة الاستبداد الداخلي والاستعمار والثقافة التقليدية وغير الفعالة، والتطرف الديني: «لقد كانت أحلام المستقبل كلّ ما كان يدفعني إلى قبول الحياة، لكنّ الآن، بعد أن استهلكتُ كلّ تلك الأحلام، وجدتُ أنّني كنت أعيش خديعة كبرى وأنا أطارد سراب المستقبل.» (بكاري، ٢٠١٥م: ٢٣٨)

يسمى مراد لتحقيق حياة حقيقية ويتحمل كل المصاعب على أمل أن يستمتع في المستقبل بلحظات حياته ويتقدم على المستوى الشخصى والاجتماعى ويصبح إنساناً منتجاً ومفيداً، لكنه يواجه الواقع المرير في المجتمع المغربي الدكتاتوري ويصبح قانطاً

وعبثياً: «ولدتُ مهزوماً... ولدتُ لأجد الحياة، وقد ضربت حولى متاريس الخيبة. وجدتُ في مقارعتها بطولةً، لكنّها كانت بطولة مجهفة. فبحثتُ بالعلم والمعرفة عن بطولة زائفة وانهزمت، لأنّ كلّ ما فعلته المعرفة، أنّها عمّقت فهمى لمأساتى..» (المصدر نفسه: ١٨٢) هـو الذى يخوض معركة حياته ومصاعبه، رغم أنه يصل إلى أعلى مستوى من الناحية العلمية ويصبح ثرياً، ولكن بسبب اهتمامه بالقيم النوعية مثل الحرية وإرساء العدالة الاجتماعية ومحاربة الجهل فهو معارض للتيار الحاكم ومعارضوه يدفعونه إلى هامش المجتمع فيصبح وحيداً وعابثاً: «آه ما جدوى حياتك يا مراد، وأنت منذ البدايات تركض في حلقة مفرغة وتسبح ضدّ التيّار.» (المصدر نفسه: ١٥)

هذا النهج الجرىء والمثالى لمراد، يجعله يواجه قضايا وحقائق الحياة التى لا يستطيع فهمها بشكل صحيح. لذلك يصبح وحيدًا ومكتئبًا وبلا هدف وغير متحمس. ومن خلال وصف حياة مراد المضطربة وإخفاقاته، يبين بكارى المحاولة الفاشلة للوسط الفكرى فى المغرب لإحداث تغييرات جوهرية فى البلاد، حيث أن الحكومة بالديكتاتورية ونشر الشعور باليأس همشت الصحوة الوطنية.

مستوى التفسير

في هذا القسم، يتم تحليل العلاقة بين البنية الدلالية لرواية نوميديا وبنية المجتمع المغربي وواقعه الثقافي والسياسي والاجتماعي.

انعكاس التطورات السياسية التي شهدها المغرب خلال فترة السبعينيات والتسعينيات في رواية نوميديا

يتجلى الوضع السياسى للمغرب فى مستويين: دولى واستعمارى، ومحلى ودكتا تورى. لقد ظلت المغرب، وهى مستعمرة فرنسية، تحت تأثير الاستعمار والإمبريالية لسنوات عديدة بعد الاستقلال، وتتغلغل الدول الغربية فى المجتمع المغربى بطرق مختلفة. حصلت المغرب على استقلالها عام ١٩٥٦م، لكن هذا الاستقلال صوّرى ولايزال الغربيون يتدخلون فى شوون المغرب. «قامت الحكومة الفرنسية بنفى العائلة الملكية المغاربية أولا إلى جزيرة كرس فى البحر الأبيض المتوسط ثم إلى مدغشقر. وبعد المفاوضات

بين العائلة الملكية والحكومة الفرنسية، والتي لعب فيها الحسن دورا ناشطاً، أعادت الحكومة الفرنسية العائلة الملكية إلى المغرب العربي. ثم تعيين الحسن قائدا لأركان الجيش الملكي وأصبح رسمياً ولى عهد المغرب. تولى والده منصب رئيس الوزراء شخصياً وجعل الحسن نائباً له وبعد وفاة السلطان محمد، أصبح الحسن ملك المغرب في نفس العام» (كتاني، ٢٠٠٠م: ٤١ و ٤٤) تظهر عملية نقل الحكم في المغرب تأثير الاستعمار في هذا البلد؛ وعلى هذا الأساس يكون الملوك مطيعين للغربيين وينفذون خططهم.

وتتجه سياسات الدول العظمى نحو الاستعمار الناعم وتعزيز الثقافة الاستهلاكية الغربية والاغتراب، ويصوّر بكارى هذه العملية استعارياً فى شكل علاقة جوليا ومراد فى رواية توميديا" ممثلة الإمبريالية الفرنسية، تقترب من مراد وهو شخصية إفريقية وعربية بحجة دراسة ثقافة بلاد الشرق، وتحوله إلى الشخصية الرئيسية فى قصتها. ومن وراء هذا التوصيف الأدبى، القصد السياسى هو تضخيم الصفات السيئة لدى العرب وعقدهم النفسية فى القضايا الجنسية: «قالت يومها إنها تعكف على انجاز بحث سوسيولوجى حول مفهوم الجنس فى الشرق، رافقتُها إلى المكتبة، وطاولتُ أن أترجم لها بعض الكتابات العربية التى تناولت الموضوع.» (بكارى، ٢٠١٥م: ١٥)

إذن فالاستعمار يبدأ من حالة سفك الدماء إلى حالة الحرب الناعمة وتغيير هوية المغرب والدول العربية. يخدع الغربيون شعب المغرب وحكومته بمظهرهم الأنيق ولغتهم الناعمة، ويستخدمون مختلف الطرق للتسلل إلى هذا البلد وتعزيز أهدافهم الثانوية تحت قناع خادع ويعلنون هدفهم في التعريف بالمعالم التاريخية والطبيعية والثقافية والاجتماعية للمغرب وإحداث التحول والتقدم فيه. لكن فعلا، ومن أجل تحقيق أهدافهم الاستعمارية، يحاولون تدمير الثقافة الشرقية العربية للمغرب.

علاقة جوليا بمراد واستغلالها لمودة ومشاعر مراد وثقته تذكرنا بالعلاقة بين المستعمر والمستعمر، وأنّ المستعمرين ينهبون ويستغلون دول العالم الثالث بذكاء من خلال الصداقة والتفاعل المتبادل: «في هذه المواجهة الأخيرة، كانت جوليا تحتمي بتاريخها

الذي يشعّ في شقرة شعرها وإمبرياليتها المتوارية خلف وشاح العاطفة والمفضوحة في عينيّ المستعمر والمستعمر على حدّ سواء.» (المصدر نفسه: ٣٩٩)

يظهر بكارى فى شكل رواية نوميديا والعلاقة بين الشخصيات فى روايته، علاقة أوسع على مستوى السياسة الكلية والدولية بين المغرب فى العالم الحقيقى وفرنسا والمستعمرين. يريد بكارى أن يقول للجمهور أن الدول الشرقية لا تزال تحت تأثير المستعمرين ورغم أنها تتمتع بالاستقلال إلا أن هذا الاستقلال شكلى والدول الغربية تلعب دوراً بارزاً فى تحديد سياستها.

وفى مجال السياسة الداخلية، تتعامل حكومة المغرب مع التيارات السياسية الماركسية بالديكتا تورية والقسوة وتعذبهم وتسجنهم. «فى عهد الحسن، كان الدستور المغربي يعترف بسيادة النظام الديمقراطي، وكان يسمح بتعدد الأحزاب، وتم انشاء المبرلمان من اتحاد مجلسين من النواب والمستشارين.» (منصور، ١٩٦٩م: ٢٣٩ و مهابه، ١٩٩٩م: ١٣٢) ومع ذلك، في النظام الملكي، مثل هذه التغييرات لا تخلق الديمقراطية. «كانت هذه التغييرات أكثر ظاهرية، لأنّ إقالة وتنصيب رئيس الوزراء والوزراء، وكذلك قيادة الجيش، كانت تحت سيطرة الحسن الثاني. ونتيجة لذلك عادت السلطة مررة أخرى إلى يديه وبدأ في إضعاف خصومه.» (بالتا، ١٣٧٠ش: ١٢٢) فإن الهيئة الأخرى إدارة البلاد. ونضال هي إحدى المناضلات التي قتل والدها على يد الحكومة وتم سيجنها وتعذيبها عدة مرات: «في قلب المواجهات مع قوى الأمن، كانت عيناها تضجّان غضباً. سمعتُ مراراً أنّ السجن ابتلعها ولفظها.» (بكاري، ٢٠١٥م: ٤٧)

فإن أى احتجاج مدنى يتم الرد عليه بالعنف والقمع والقسوة، ويتم انتهاك الديمقراطية. ولم يقتصر سلوك الحكومة القاسى على النضال، فقد تم اختطاف والدها سراً، وهو أحد المقاتلين القداميين، وقتل عدة أشخاص آخرين بعد التعذيب والسجن، ودفنهم في مكان مجهول: «كنتُ أريد أن أنتقم لأبّى الذي ابتلعته الدهاليز والأقبية المظلمة، أبّى الذي اكتشفتُ متأخّرة المكان الافتراضى الذي دُفن فيه، هو وبعض رفاقه.» (المصدر نفسه: ١٠٣)

وفى مثل هذا الاختناق لا يسمع صوت إلا صوت الحكومة، وتقمع المطالبة بالحرية بقوة، لكنها لا تسكت، وتفسح حرية التعبير والفكر المجال للسكوت والاستبداد والخوف العام.

إعادة إنتاج المكوّنات الثقافية المغربية في رواية نوميديا

فى رواية نوميديا، يتم وصف الثقافة التقليدية التى تحكم المجتمع المغربي، والتى لا تقتصر على القرية بل هى أيضا جريئة فى المدينة. الخرافات والجهل والإتباع الأعمى لبعض الأفكار الفاسدة للأسلاف والدوغمائية والقبول غير المشروط للعادات الثقافية التقليدية هى بعض الأشياء التى ينتقدها بكارى. ومن مظاهر الثقافة التقليدية لإغرميين الإيمان بالأثر السلبى لللعن. أنهم يضحون للموتى من أجل دفع البلاء واللعنة التى يعتبرون مراد مصدرها: «ظلوّا يتوجّسون منّى خيفة، بل وحبسونى لعنة سُلطت عليهم. لذلك أكثروا من تقديم الذبائح لرجال البلاد.» (المصدر نفسه: ٢١٧)

مثل هذه الأفكار الفاسدة تجعل مراد مع صغر سنه يتعرض لضغوط نفسية شديدة ويشعر بالوحدة والغربة، ونتيجة المصير والقدر الجغرافي والاجتماعي، فيقع في فخ الأوهام والتخلف الفكري مجموعة مخدوعة ودوغمائية.

الخرافة هي الجانب السلبي في الثقافة التقليدية المغربية، والتي تنبع من التبعية العمياء للأشخاص الذين يخضعون لهذا التقليد. قام شخص اسمه السفاح الرومي ببناء قلعة على جبل ويقتل كل يوم الكثير من الناس حتى ذات يوم قدم له شيخ القوم ابنه قرباناً ليتوقف عن القتل. وعندما يقطع السفاح رأسه، تنبت شجرة تين من قطرات دمه ويتغير لون ثمرها من الأبيض إلى الأحمر. وهذه القضية تجعل أهل القرية يعتبرونها شجرة ملعونة ويحرمون أكل ثمرها: «سلمتُ عيسى وتأمّلتُ إغرائات شجرة التين اللعنة باهتمام، هنا أسلم سيدى موسى ابنه للسفاح الرومي، وهناك حيث تفتقت شجرة الطين طارت دماؤه، وزعموا أنها ولدت من دمه، وأنّ ما يفسّر ذلك هو كون البياض الذي ينفجر من رؤوس حبّات التين انقلبت في هذه الشجرة حمرة، ولذلك حرّموا أكلها! إغرم تؤمن بالحكاية، ومعجزاتها تعيش وفق منطقها، وأهلها يعيشون صخب الحكاية

ويدافعون عنها بما ملكوا.» (المصدر نفسه: ٣١١)

ويبين بكارى أن الأغريميين لم يقبلوا هذه القصة إلا بالاعتماد على كلام أسلافهم ودون التفكير في صحة هذه القصة ومصداقيتها، ويؤمنون بها بطريقة غير عقلانية ومتطرفة، ويختلقون حولها العديد من الأساطير والخرافا.

لا جديد في مثل هذه الثقافة وكل شيء هو نسخة من أصل الأجداد وسلوكياتهم وعاداتهم وخرافاتهم وهم في الغالب يعيشون في الماضي ويضطر الأبناء إلى طاعة آبائهم وتقليدهم وتستمر هذه الأجيال: «يتزوج أقراني ويصيروا أباء كذلك، هكذا يصبحون امتداداً لآبائهم وربّا يفرضون على أبنائهم أن يصيروا مثلهم، أو بالأحرى امتدادا لهم.» (المصدر نفسه: ٦٥)

وفى مثل هذه الثقافة يســود نوع من الديكتاتورية والدوغمائية والتفكير الجاف، حيث تتضاعف ضرورة التفكير النقدى.

تقوم كل التعاملات في الثقافة المغربية التقليدية على علاقات الدم، ولا يمكن لأى شخص آخر غير الإغرميين أن يتزوجهم، ولا يمكن للغرباء مثل مراد أن يعيش بينهم ويجب أن يغادر لأنه ليس من دمائهم، «لكن خلف كلّ ما قيل حقيقة مرّة لم تُقل، ربّا كانت هي اوّل ميت فكّر فيه شيوخ القبيلة، إنّها نسل القرية الذي لا ينبغي أن تجانسه دماء طفل مجهول الهويّة، ... لا ينبغي أن يظلّ أوداد في القرية، لكي لا يدنس الدماء النقيّة والمؤحّدة التي تسرى في شرائين كلّ فرد من أفردها.» (المصدر نفسه: ٥٠)

فى مثل هذه الكلمات هناك نظرة فاشية وعنصرية مفادها أن الناس تحت تأثير الظاهرية والتقليد الخاطىء للأسلاف، يقسمون الناس إلى مجموعتين، مستحقين وغير مستحقين على أساس الدم والوراثة فقط، ولل؟؟؟ ينتبهون لمواهبهم ويرفضونهم ويستخدمون قوتهم القسرية ضدهم.

انعكاس عواقب التطرف الديني في المغرب

ويعتبر التطرف الديني أحد المقولات التاريخية في المغرب، والذي اشتد في القرن العشرين، وكانت الجماعات الإسلامية المتطرفة تعانى من صراعات مع الحكومة

المغربية. «شهدت المملكة المغربية منذ ستينيات القرن الماضي صدامات عنيفة ما بين ما يعرف بحركة «الشبيبة الإسلامية» والنظام الملكي أسفرت عن زوال هذه الحركة وميلاد حركتين هما «حركة العدل والإحسان» و «حركة الإصلاح والتجديد». ومع إقرار التعددية الحزبية في المغرب، كان للحركتين المذكورتين حضور ملحوظ في الحياة السياسية المغربية، بيد أنه ونتيجة للتضييق الكبير على التيار الإسلامي في المغرب تم تأسيس ما يسمى بجماعة الشبيبة الإسلامية من قبل مقاتلي حرب أفغانستان من المغاربة بهدف إرساء دعائم الدولة المغربية، ومد يد العون لتنظيم القاعدة محلياً وإقليمياً لطالما أن هذا التنظيم تشكل من مغاربة أفغان يعملون تحت لواء وإشراف زعماء تنظيم القاعدة.» (رتيبة، ٢٠١٢م: ٤٨؛ دريس، ٢٠١٤م: ١٠٤) وتبين هذه القضية السياسة المتناقضة التي تنتهجها الحكومة المغربية تجاه فئة التطرف، إذ رغم علمها بنوع الأنشطة التخريبية التي تمارسها هذه الجماعات، فإنها تستخدمها كأداة لقمع الجماعات المعارضة. وتنمو الجماعات الدينية المتطرفة على نطاق واسع بسبب هذه السياسة الخاطئة والمزدوجة، وتنتشر العقائد الدينية من قبل المبشرين الدينيين تحت تأثير التفسيرات غير الصحيحة للقرآن والنصوص الدينية وتمنحهم الحكومة الحرية لارتكاب العديد من الجرائم بالعنف. يقــول مراد «طالعني وجه ملتح. تأمّلتُه وهو يتفرّس في وجوه بعض الأجانب بوع من الاستغراب المشوب بالاستهجان، المسكين يبدو مخدّراً، إذ يعتقد أنّ الدين هو أن سيبل المرء لحيته ويبلس البياض ويدعيّ الورع والتقوى!» (المصدر نفسه: ٣١٤)

وكراهية النساء مقولة أخرى تعكسها رواية نوميديا، وهي متجذرة في الفهم الخاطئ لدى بعض المبشرين الدينيين والتصورات غير الصحيحة، وأحياناً تدخل الآراء الشخصية في الحكم ضد النساء. ويصوّر بكارى على لسان أحد مشايخ الدين العداء والنظرة السلبية لهذه الفئة من المجتمع تجاه المرأة في المجتمع المغربي الذي يعتبر المرأة عوراً وعاراً: «ألم علي صوت أحد الشيوخ. سمعتُه يصيح في إحدى القنوات بلهجة شديدة لا تخلو من زفرة، وتلك اللحية الحرباء على وجهه تعلو وتنحني كمكنسة الغبار، كان يصيح: يد المرأة عورة، شعرها عورة، ووجهها عورة. جسد المرأة كلّه عورة.» (المصدر نفسه: ١٨٦-١٨٧)

ومن هذا المنطلق فإن المرأة هي عبدة جنسية وخاضعة للرجل وسبب في تحريضه وإغوائه وإضلاله، وهذا يتناقض مع تعاليم الإسلام والقرآن الذي يؤكد على التوازن في جميع الأمور والحفاظ على قيمة ومكانة المرأة في المجتمع.

ولا يقتصر هذا التفكير الخاطئ على هذه الحالة فحسب، بل إنه يدخل الأفكار الهدامة والإرهابية في أذهان بعض الشباب الجاهلين والساذجين، و مما يدفعهم إلى الانضمام إلى الجماعات المتطرفة وارتكاب الجرائم والاغتيالات داخل المغرب والدول الأخرى: «قرأتُ في إحدى الجرائد ما يلى: تمكّنت عناصر الأمن الوطن من تفكيك خليّة إرهابيّة مكونة من أحد عشر فرداً، وقد اعترف بعضهم بأنّه تلقّى تدريبات نظريّة وميدانيّة بالعراق وأفغانستان ودول مجاورة.» (المصدر نفسه: ٢٠٣)

يدعو بكارى من خلال انتقاده لتشجيع المبشرين الدينيين الشباب للأفكار المتطرفة وترويع الأبرياء إلى ضرورة الابتعاد عن الدوغمائية والدعوة إلى السلام والمراجعة في بعض التعاليم الدينية. إن الحكومة المغربية بسياستها المتسامحة والمتناقضة تجاه الحركات العنيفة للمتطرفين، توفر الأرضية اللازمة لترويج الإرهاب.

انعكاس المجتمع المغربي المستعمَر في رواية نوميديا

فى أى مجتمع، يتم قبول بعض السلوكيات والأفعال الجيدة والإيجابية كأعراف أخلاقية واجتماعية. وقد قام بعض الناس بتغيير هذه الأعراف لمصلحتهم عن طريق تضليل واستغلال جهل بعض الناس، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وفى الباطن يفعلون عكس ما يقولون. ورغم أن المغرب بلد ذو ثقافة عربية وإسلامية، إلا أنه يبتعد كثيراً من مكونات الثقافة الإسلامية الأصيلة بسبب تأثر الثقافة الغربية. «يستمر الاستعمار فى المغرب إلى يومنا هذا سياسياً وتاريخياً وأبرز مظاهره هو اندماج الاقتصاد والمجتمع المغربي فى النظام الرأسمالي، وينعكس دوره فى استكمال هيكلية الحكومة المغربية وخارطة طريقها فى السياسة الخارجية والداخلية.» (مالكي، ١٩٩٣م: المجتمع المغربي. يقود العديد من الشخصيات الدينية فى المغرب المجتمع نحو الفسق المجتمع المغربي. يقود العديد من الشخصيات الدينية فى المغرب المجتمع نحو الفسق

من خلال ترويج الظاهرية: «كنتُ ألمح أولئك الذين يعظون النّاس وينصحونهم نهاراً، وهم سكارى تتقاذفهم الجدران ليلاً، فكيف ينهون عن شيء ويأتون بمثله؟ أيّ خراء هذا الذي يقبع داخل جمامهم! أيّ روائح للزبل تتبخّر من أفواههم الواعظة!» (بكارى، ٢٠١٥م: ٢٤٥)

ويتسبب هذا النفاق في تكوين حالة من السخرية والشك وعدم الثقة في المجتمع المغربي، وجميعهم يتأثرون بالعناصر الإمبريالية ويحاولون استغلال الآخرين.

الخيانة والمصلحة الذاتية والعطف على الأجانب من السلوكيات السيئة الشائعة الأخرى في المجتمع المغربي التي انتقدها بكارى في روايته نوميديا. ومثال واضح على هذه القضية هو الدكتور بن هاشم الذي يبيع كل معلومات مراد الشخصية وسيرته ومرضه مقابل مبلغ من المال إلى جوليا: «أزاح القبّعة ومرّ بيده على صلعته وثرثر بعد ذلك كثيراً، بفرنسيّية فيها الكثير من الرطانة، عن الأخلاق والقيم! لكنّ ما إن وقعتُ شيكاً ووضعتُه على طاولته، حتى ازدرد ريقه وفرش ملفّات مرضاه وشرع في المساومة كأنّا يبيع الملابس المستعملة.» (المصدر نفسه: ٢٤٩)

يخبر بكارى من خلال وصف سلوك بن هاشم المثير للاشمئزاز الجمهور عن الآثار المدمرة للتفاعل مع العالم الغربي الذي ينفر المغاربة من المكونات الأخلاقية والاجتماعية الإيجابية للثقافة العربية وينشر الاغتراب والمصلحة الذاتية بينهم. يريد بكارى أن يبين أن انتشار انعدام الثقة والخيانة وانتهاك خصوصية المواطنين المغاربة متجذر في هيمنة النظام الرأسمالي على المجتمعات العربية والسياسات المتناقضة للحكومة ونفاق الزعماء الدينيين.

النتيجة

المراع عن الصراع عن الصراع عن الصراع عن الصراع وتضارب المصالح بين الطبقات الاجتماعية والصراع بين النظام التقليدى ونظام الحداثة والمعتقدات الاشتراكية وأسسس الرأسمالية ونظام الاستبداد الداخلى والانتفاضة الشعبية، وتصور اقتصاد المغرب المستعمر ووضعه الاجتماعى

- والسياسي والثقافي في العقود الأُخيرة في نص الرواية.
- ۲. إن غــو الوعى الطبقى فــى المجتمع المغربى وتكويــن مجموعات مناضلة بين الشرائح المثقفة والماركسية يؤديان إلى تعارض بين مصالح الفئات المختلفة فى المجتمع والحكومة.
- ٣. من خلال اعتقال وتعذيب وسجن المتظاهرين، تقوم الديكتاتورية بقمع مطالبهم وأنشطتهم للحرية وتمنع تحقيق الوعى الممكن في المجتمع المغربي، وبدلا من ذلك، تعمل الجماعات الدينية المتطرفة على تعزيز الجهل والدوغمائية والعنف والانتحار في المجتمع مع التنسيق بين الحكومة.
- الديمقراطية في المغرب كذبة جميلة ينساها طغيان الملك واستبداده، كما في أجواء رواية نوميديا، تهيمن الحكومة بصوتها على الرواية بأكملها، وتخنق الخطابات النقدية بالعنف والإصرار.
- 0. اليأس والتشاؤم والشعور بالفشل والخرافة والرضاعن الوضع الاقتصادى السيئ والفقر والعنصرية والتقليد الأعمى للماضى في رواية نوميديا هو انعكاس للواقع المرير للمجتمع المغربي الذي يتأثر بعوامل خارجية وداخلية كالاستعمار الناعم والتحول الثقافي والاغتراب، وغو الأفكار التكفيرية والإرهاب.
- ٦. رؤية العالم الخفية في هـذه الرواية هي الموقف النقدى والاحتجاجي لفئة من المثقفين اليساريين الذين ينتفضون من أجل نيل حقوقهم الاجتماعية، بما في ذلك حرية الفكر والتعبير، والعدالة الاجتماعية، والتقدم الثقافي والاقتصادى والاجتماعي للمغرب وعدم الاستسلام للأجانب.
- ٧. يتم التعبير عن رؤية العالم للطبقة المثقفة الماركسية المغربية بمساعدة تصرفات مراد ومصطفى ونضال الذين يؤمن المؤلف بمثلهم العليا، والرسالة الأساسية لهذه الطبقة هي مواجهة النفوذ المتزايد للنظام الرأسمالي في الدول العربية وتطوير أفكار مناهضة للإمبريالية لتغيير الظروف السائدة على العالم العربي.
- ٨. يعكس بكارى فى نص روايته التغيرات الواسعة التى طرأت على العالم الواقعى
 بالمجتمع المغربى على أربعة مستويات سياسية ودينية وثقافية واجتماعية ويمثل

- العديد من المجهولات التاريخية بلغة الرواية.
- 9. يشير بكارى على المستوى السياسي الدولى إلى علاقة بين جوليا ومراد، ويعتبرها مثالا واضحا على علاقة بين الاستعمار والدول المستعمرة، حيث يدخل المستعمرون إلى هذه الدول بسياسات دياغوجية وتحت غطاء برامج إصلاحية لتطوير حضارتهم الثقافية والهيمنة الاجتماعية والاقتصادية في الدول العربية. فإن المستعمرين بنشر التغريب وخلق المنافسة بين الناس يبعدونهم عن الثقافة العربية الأصلية، ويحولونهم بتوسيع سياسات النظام الرأسمالي إلى أشياء يكن أن يستغل منهم بأي شكل من الأشكال ودون مراعاة لقيمتهم الإنسانية.
- ١٠. وعلى مستوى السياسة الداخلية، يحكم النظام الملكى والاستبدادى المجتمع المغربي من خلال قمع أى سلوك احتجاجي وتواطؤ مع المتطرفين والخنق والديكتاتورية والظلم، ويتم تجاهل حكم الشعب على الشعب.
- ۱۱. وعلى المستوى الديني، أدى انتشار الأفكار الدينية المتطرفة وانتشار القتل والاغتيال والتخريب من قبل بعض الجماعات المتطرفة تحت تأثير التفسيرات الخاطئة للمبشرين الدينيين وفي ظل صمت الحكومة، إلى تغيير الوضع المغربي. نظرة المجتمع للدين وانتشار نوع من عدم الثقة العامة على مستوى المجتمع منعان أي تغيير إيجابي في المجتمع.
- 11. وعلى مستوى التفاعلات الثقافية، يرى بكارى أن هيمنة الثقافة التقليدية على المجتمع المغربي والدوغمائية والتبعية غير المنطقية للأسلاف هي سبب تخلف المغرب. ويريد من خلال التأكيد على إيجابيات الثقافة التقليدية إزالة بعض العادات القديمة والأفكار الفاسدة التي لا تنسجم مع الأوضاع الراهنة وليس لها نتيجة سوى التخلف.
- 17. وعلى المستوى الاجتماعي فإن الخنق والاستبداد والنفاق والخيانة والنفعية والخدمة الجيدة للأجانب هي أبرز سمات المجتمع المغربي الحالي، وهو ما يتسبب في اتساع نفوذ المتطرفين في المغرب وانتشار الفساد الأخلاقي والانفلات في هذا البلد ويحرمه من التقدم والحرية والضمان الاجتماعي.

المصادر والمراجع

بالتا، پل. (۱۳۷۰ش). مغرب بزرگ از استقلالها تا سال ۲۰۰۰. ترجمه عباس آگاهی. تهران: وزارت امور خارجه، دفتر مطالعات سیاسی و بین المللی.

بحرى، محمد الأمين. (٢٠٠٥م). «رؤية العالم في ذاكرة الجسد». مذكرة ماجستير. جامعة محمد خيضر. بسكرة.

بكارى، طارق. (٢٠١٥). نوميديا. ط ١. بيروت: دار الآداب.

پاسکادی، یون. (۱۳۷٦ش). ساخت گرایی تکوینی و لوسین گلدمن. مترجم محمد جعفر پوینده. تهران: چشمه.

جلالى، عيدان و رسول بلاوى و على خضرى. (١٠١ه). «دراسة رواية أهل الحميدية لنجيب الكيلانى على ضوء منهج البنيوية التكوينية لغولدمان». بحوث في اللغة العربية. المجلد ١٤. العدد ٢٦. صص ١٠٤-٩٣.

دريس، باخوية. (٢٠١٤م). «جرائه الإرهاب في دول المغرب العربي، تونس، الجزائر والمغرب أغوذجاً». دفاتر السياسة والقانون. العدد ١١٠. صص ٩٧ - ١١٤.

راودراد، اعظم. (۱۳۹۶ش). نظریههای جامعه شناسی هنر و ادبیات. چاپ سوم. تهران: انتشارات دانشگاه تهران.

رتيبة، برباش. (٢٠١٢م). «الأمن والإرهاب في المغرب العربي (مقاربة استراتيجية)». رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية. كلية العلوم السياسية والإعلام. جامعة الجزائر.

شــحيد، جمال. (١٩٨٢م). في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان. ط ١. بيروت: دار بن رشد.

شمیسا، سیروس. (۱۳۸۹ش). نقد ادبی. چاپ دوم. تهران: میترا.

العيسوى، إبراهيم (١٩٨٩م)، نحو خريطة طبقية لمصر. الإشكالات النظرية والاقتراب المنهجي من الواقع الطبقي المصري، القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.

غازى الجابرى، فوزية لعيوس. (٢٠١١م). التحليل البنيوى للرواية العربية. ط١. عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع.

غولدمان، لوسيان، باسكاوى، يون، لينهارت، جاك، دوبوا، جاك، دوفينو، جان، هيندلس، ر. (١٩٨٦م). البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. الطبعة الثانية. مؤسسة الأبحاث العربية.

غولدمان، لوسيان. (١٩٩٦م). العلوم الانسانية والفلسفة. ترجمة يوسف الأنطاكي. مراجعة محمد البرادة. المجلس الأعلى للثقافة.

_____(۱۹۸۱م). المنهجية في علم الاجتماع الأدبي. ترجمه مصطفى المنشاوي. ط١.

بيروت: دار الحداثة.

كتانى، محمد. (٢٠٠٠م). شخصية الحسن الثانى: في ابعادها ومناقبها. الدار البيضاء: دار الثقافة. گلدمن، لوسين . (١٣٨١ش). جامعه، فرهنگ و ادبيات. ترجمه محمد جعفر پوينده. چاپ سوم. تهران: حشمه.

______(۱۳۷۷ش). در آمدی بر جامعه شناسی ادبیات. ترجمه: جعفر پوینده. تهران: چشمه. ______(۱۳۹۹ش). جامعه شناسی ادبیات دفاع از جامعه شناسی رمان. ترجمه: محمد جعفر پوینده. تهران: هوش و ابتکار.

گيدنز، آنتوني. (۱۳۹۰ش). جامعه شناسي. ترجمه حسن چاوشيان. چاپ چهاردهم. تهران: ني. لحمداني، حميد. (۱۹۹۰). النقد الروائي والأيديولوجي. الطبعة الأولى. بيروت: المركز الثقافي العربي. مالكي، أحمد. (۱۹۹۳م). الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

مکاریک، ایرنا ریما. (۱۳۸۶ش). دانشنامهٔ نظریههای ادبی معاصر. ترجمه مهران مهاجر و محمد نبوی. تهران: آگه.

منصور، عبدالوهاب بن. (١٩٦٩م). الحسن الثاني: حياته وجهاده ومنجزاته ج١. الدار البيضاء: المطبعة الملكية.

مهابه، أحمد. (۱۹۹۹م). «مستقبل المغرب بعد رحيل الملك حسن». السياسة الدولية. العدد ١٣٨٠. صص ١٧٧-١٧٧.

الانجليزية

-Goldman, L (1970). Marxisme et sciences humaines, Gallmard.